

أمهات المؤمنين

أُمُّ حَبِيبَة



أحمد شوحان

عضو اتحاد الكتاب العرب
عضو جمعية البحوث والدراسات

مكتبة التراث - دير الزور

أُمَّهات المؤمنين

سلسلة تتناول سيرة زوجات النبي ﷺ

كتبت بأسلوب سهل وجذاب لأذواق الفتية والفتيات من أوثق المصادر العربية والإسلامية وتشتمل على :

١ـ خديجة بنت خويلد

٢ـ سودة بنت زمعة

٣ـ عائشة بنت أبي بكر

٤ـ حفصة بنت عمر

٥ـ أُمُّ سلمة هند بنت أبي أمية

٦ـ زينب بنت جحش

٧ـ جويرية بنت الحارث

٨ـ صفية بنت حُيَي

٩ـ أُمُّ حبيبة بنت أبي سفيان

١٠ـ مارية القبطية

مكتبة التراث ـ دير الزور ـ هاتف ٢١٥٧٢٢ ـ ص ب ٩١



أمهات المؤمنين

أُمُّ حَبِيبَة

أحمد شوحان

عضو اتحاد الكتاب العرب

عضو جمعية البحوث والدراسات

مكتبة التراث - دير الزور

أم حبيبة

بأقلام المؤرخين

قال الإمام الذهبي :

(هي من بنات عم الرسول ﷺ ، ليس في أزواجه من هي أقرب نسباً إليه منها)

سير أعلام النبلاء (٢ / ٢١٩ ت ٢٣)

قال ابن سعد :

قالت رملة لعائشة حين تحلّلت منها : (سررْتِني سرَّك الله) .

الطبقات الكبرى (٨ / ١٠٠)

قال سميح عاطف الزين :

ظلَّت أُم المؤمنين رملة على صدق إيمانها ، وعلى طهارتها ونُبل أخلاقها حتى توفّاها الله ، فكانت من المؤمنات الصالحات .

رملة بنت أبي سفيان (ص ٢٠)

*　　*　　*

أم حبيبة بنت أبي سفيان

أُم حبيبة هي رملة بنت أبي سفيان ، زعيم مشـــركي مكـــة قبـــل إسلامه .

هاجرت مع زوجها عبيد الله بن جحش إلى الحبشة (لقد تحملت أم حبيبة الكثير مما تحمله الصحابة من أجل إســـلامهم . . تحملـــت أذى قومها ، وهجر أهلها ، والغربة عن وطنها وديارها . . كل ذلك لتحيى حياة الإسلام . . بعيدا عن الشرك والمشركين) (١) .

انتصر الرسول ﷺ على يهود خيبر وعاد إلى المدينـــة المنـــورة ، فوجد مهاجري الحبشة قد عادوا إلى المدينة بقيادة عمرو بـــن أُميـــة الضمْري الذي أرسله النبي ﷺ إلى الحبشة لإعادة المســـلمين الذيـــن هاجروا إليها إلى المدينة المنورة .

عودة المهاجرين

وفرح رسول الله ﷺ بأُولئك العائدين إلى أرض الوطـــن ، حيـــث كانوا ستة عشر رجلاً وصلوا المدينة وأفراح المسلمين بالإنتصار على اليهود في خيبر على أوجها .

كان بين أولئك جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ابن عم رســول الله ﷺ حيث أسرع إليه النبي ﷺ يعانقه .

(وأهـــلّ عليهم ﷺ فلمح من بينهم أصحابه الذين هاجروا من مكة

---

(١) ـ صور من حياة الصحابيات الرسول ﷺ (ص ٢٧٤) .

أيام الاضطهاد والعذاب ، أولئك الذين كانوا آخر عهده ﷺ بهم يوم تسللوا من مكة أيام المحنة ، خارجين من ديارهم وأموالهم في سبيل الله ، وأقصى ما يتمناه أحدهم أن يموت على الإسلام غريباً مهاجراً فتكون له الجنة) (١) .

ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : (ما أدري بأيِّهما أنا أسر : بفتح خيبر أم بقدوم جعفر) (٢) .

وخلال تلك الفترة حملت رملة من زوجها ووضعت ابنتها (حبيبة) وكُنِّيت بها ، فصار المسلمون في الحبشة لا يعرفونها إلا باسم (أم حبيبة) .

أما أبو حبيبة فقد ارتد عن الإسلام ، وراح يعتنق النصرانية .

وراح ينهمك في شرب الخمور ، وارتكاب المحرمات حتى مات في الحبشة .

فما ذنب هذه الطفلة التي ولدت وأمها مسلمة وأبوها نصراني وجدها مشرك من كبار مشركي مكة المكرمة ؟ ! !

لقد حاول عبيد الله مرارا أن يُثني (رملة) عن دينها ، دون أن يفكر في السبب الذي دعاها للهجرة من مكة إلى الحبشة ، ونسي أن الإيمان بالله هو سبب هجرتهما ، فكيف يرتد عن دينه ويدعو زوجته لترتد مثله ؟ !!

---

(١) ــ سيدات بيت النبوة (ص ٣٧٨) .

(٢) ــ سيرة ابن هشام .

شعرت رملة بغربتها فاعتزلت الناس ، لأن أباهـــا فـــي مكـــة ، وزوجها في الحبشة ، لقد عاشت في عزلة تامة مع ابنتها الصغيرة .

وجاءت الأخـــبار من مكـــة تقـــول : أن أبا جهل وعتبة بن أبـــي ربيـــعة ، والعباس بن عبـــد المطـــلب مرّوا بدار بني جحش ، وهـــي خاوية مقفرة ، وقد هجرها أصحابها وهاجروا إلى الحبشـــة والمدينـــة المنورة فقال عتبة بن ربيعة :

وكل دار وإن طالت سلامتها يوما ستدركها النوباء والحوب

أصبحت دار بني جحش خلاء من أهلها .

فقال أبو جهل : وما تبكي عليه ؟

ثم قال : هذا عمل ابن أخـــي ، فـــرّق جماعتنا ، وشـــتّت أمرنا ، وقطع بيننا .

أم حبيبة . . . أم المؤمنين

منذ فارق عبيد الله بن جحش زوجته أم حبيبة وارتد عن الإســـلام وراح ينهمك في شرب الخمر ، حتى مات وهو علىَ ردته وموبقاته .

وبقيت أم حبيبة تعاني من عزلتها القاتلة حتى انقضت عدتها .

وفجأة سمعت طارقا يطرق باب بيتها .

لقد أرسل النجاشي جاريته تحمل رسالة تقول فيها :

إن الملك يقول لك : وكّلي من يزوّجك من نبيّ العرب ، فقد أرسل إليه ليخطبك له !!!

وفرحت أم حبيبة بما سمعته من الجارية ، وخلعت من معصمـــيها

سِوارين كانت تزيّن بهما معصميها وأعطتهما للجارية حلاوة بشراها بهذا النبأ .

أرسلت أم حبيبة إلى خالد بن سعيد بن العاص كبير المسلمين المهاجرين الذي كان يقوم بخدمة المسلمين ، ويشرف على أمورهم ، وأخبرته بما سمعته من الجارية ، فلما حضر وكّلته عن نفسها لزواجها.

ودعا النجاشي المسلمين الذين يقيمون في الحبشة فحضروا ، وكان في مقدمتهم جعفر بن أبي طالب ، ابن عم الرسول ﷺ وخالد بن سعيد ابن العاص الذي أصبح وكيلاً عن أم حبيبة .

وتكلم النجاشي ، وترجم المترجم كلامه فكان :

(إن محمد بن عبد الله كتب لي أن أزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان ، فمن أولاكم بها ؟

قالوا : خالد بن سعيد ، قد وكلته .

وقال النجاشي لخالد :

فزوجها من نبيكم ، وقد أصدقتها (١) . عنه أربعمائة دينار فقام خالد وقال :

قد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ وزوجته أم حبيبة .

وقبض خالد الصداق ، ودفعه لأم حبيبة .

وقدم النجاشي وليمة الزواج من نفسه وقال :

---

(١) ــ دفعت لها صداقاً عن رسول الله ﷺ . أي مهرا .

اجلسوا ، فإن سنة الأنبياء إذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التـــزويج

وتوافد الصحابة رضي الله عنهم على دار أم حبيبة مـــهنئين لـــها بهذا الزواج المبرور .

وفي اليوم الثاني جاءت جارية النجاشي تحمل لأم حبيبـــة هدايـــا نساء النجاشي وهي الطيب والعنبر والعود (١) .

وهنا شكرت أم حبيبة الجارية ، وأخبرتها أن الملك قد أعطاها مالاً وأمرها ألاّ تأخذ شيئاً من أم حبيبة ، كما أمر نساءه أن يرســـلن لـــها الطيب والعطور هدية منهن إليها .

وقبلت أم حبيبة منهن هدايا العطر ، وحينما عادت إلـــى المدينـــة المنورة حملته معها إلى بيت رسول الله ﷺ .

ولما بلغ أبا سفيان أن النبي ﷺ تزوج ابنته ، قال : ((هو الفحل لا يجدع أنفه)) !!

وفي رواية : ذاك الفحل لا يقرع أنفه (٢) .

أي إنه الكفء الكريم الذي لا يعاب ولا يرد !!!

سفارة أبي سفيان

فرح المسلمون بزواج رسول الله ﷺ من أم حبيبة بنت أبي سفيان ، وراح خالها عثـمان بن عفان رضي الله عنه ينحر ذبائح العــرس

---

(١) ـــ نوع من الطيب .

(٢) ـــ أسد الغابة (٧ / ١١٦ ت ٦٩٢٤) . الإصابة (٤ / ٢٩٩) وسير أعلام النبلاء (٢ / ٢٢٢ ت ٢٣) وطبقات ابن سعد (٨ / ٩٩) .

فرحا ويدعو لطعامه المسلمين .

وشعرت قريش أن محمداً ﷺ تزداد محبته في قلوب أصحابه ، كما أن نفوذه راح يمتد ويتسع في المدينة المنورة وما حولها ، فخشيت من سوء ذلك وقررت إرسال وفد إليه للمباحثات والمفاوضة قبل أن ينقض عليهم في مكة ، ويجندل ما بقي من رؤوس زعمائها ممرغة بالتراب، كما فعل في معركة بدر ؛ التي كانت فيصلا بين الحق المتمثل في الإسلام ، والباطل المتمثل في جاهلية المشركين .

واتفق المشركون على أن يرسلوا رسولا منهم لمفاوضة محمدﷺ ، ولكن من سيكون ذلك الرسول الذي يحسن فن الحديث والكلام والمفاوضة ؟ !!

لقد اتفقوا أخيرا على أن يكون أبو سفيان ذلك الرسول الذي يمثل قريشا في هذا الوفد .

ووافق أبو سفيان مُيمماً وجهه إلى المدينة المنورة ليفاوض محمداً ﷺ وهو في هذه المفاوضة كاره ، إن لم يكن في ظاهره ، ففي باطنه حتماً .

لقد جاء إلى المدينة المنورة ليفاوض خصمه اليوم ، وعدوه الذي بذل كل ما بوسعه لقتاله أمس .

لقد استعملت قريش الدهاء والحنكة في إرسال أبي سفيان ، فابنته أم حبيبة هي زوجة محمد ﷺ الذي أرسلت أبا سفيان لمفاوضته .

فلا بد أن يكون هنا تواصل ، ولقاء ، وعفو عما فعلته قريش من قبل .

ولابد أن يكون لأم حبيبة مكانة عن رسول الله ﷺ ، ولابد لهذه المكانة من تأثير في سير عملية المفاوضة بين محمد عليه السلام وزعيم قريش أبي سفيان !!!

أبو سفيان في بيت رسول الله

فكر أبو سفيان في الدخول إلى بيت رسول الله ﷺ لملاقاة ابنته ، وأخذ رأيها ، ومساعدته في مهمته لنجاحها ، وقد ساقه هذا التفكير لجس نبض المسلمين ، ومعرفة قدرتهم المعنوية ، من خلال الحوار الهادئ مع ابنته في خلوة هادئة .

وفجأة دخل أبو سفيان بيت أم حبيبة .

وشاهد ابنته التي طال غيابه عنها منذ هاجرت إلى الحبشة فراراً بدينها من بطش قريش والمشركين .

لقد عجب أبو سفيان من هذا الموقف الذي وقفته ابنته منه بعد غياب طويل .

لم تهرع إليه ، لم تعانقه ، لم تبشّ بوجهه أو تهش ، ولم . . ولم.

كأن لسان أم حبيبة رضي الله عنها يقول : قف يا أبا سفيان أنت في بيت رسول الله ﷺ .

أنت في أطهر بيت وأتقى مكان . (كيف تدخل هذا المكان وأنت لا تزال تعتقد بأصنام الجاهلية . وتحتكم للطواغيت ، وتؤمن بتعدد الآلهة، لم تقل أم حبيبة ذلك بلسانها ، لكن قلبها قال ذلك ، وقال أكثر من ذلك ولم تقل لأبيها اجلس ، أو تقدم له وسادة وقد جاء من مكة

متعباً !!

عجب أبو سفيان من موقفها ، وعجبت أم حبيبة من قدومه المدينة ودخوله بيت رسول الله ﷺ .

وشعر بخيبة أمله في ابنته أولا . فأراد أن يستريح مستبيحا الجلوس على فراش رآه في الغرفة ، فهم في الجلوس عليه ليستريح من وعثاء سفره .

وكانت الصفعة الثانية من ابنته « رملة » إذ أسرعت فطوت الفراش دونه .

وشُدِه أبو سفيان حين رأى ابنته تهرع فتطوى الفراش دونه لئلا يجلس عليه .

قال لها بغرابة :

أطويتهِ يا بُنية رغبة بي عن الفراش ، أم رغبة بالفراش عني ؟ .

قالت رملة : هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك ، فلم أحب أن تجلس عليه !!! (١) .

وعلم أبو سفيان أن ابنته في النسب ، لكنها ليست ابنته في العقيدة والدين !!! فقال لها واليأس يسيطر على شعوره وأحاسيسه :

لقد أصابكِ يا بُنيّة بعدي شر .

وخرج من بيت رسول الله ﷺ غاضباً .

لقد لقّنته ابنته درساً قاسياً في محبة رسول الله ﷺ واتباع أصحابه له

---

(١) ــ أسد الغابة (٧ / ١١٦ ت ٦٩٢٤) وسير أعلام النبلاء (٢ / ٢٢٢ ت ٢٣) .

أبو سفيان يبحث عن مُجِير

ذهب أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ وكلّمه في الأمر . لكن الرسول العظيم الذي استعد للأمر وأعد له عدته رفض أن يجيب أبا سفيان ولو بكلمة واحدة مما أراد . . .

وذهب أبو سفيان إلى أبي بكر رضي الله عنه يتوسل به.

ورفض أبو بكر أن يجيبه .

وذهب أبو سفيان إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وقال له عمر : أنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ ؟ فو الله لو لم أجد إلا الذّرّ لجاهدتُكم به !!!

وذهب أبو سفيان إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال له : يا علي ، إنك أمسّ القوم بي رحِماً ، وإني قد جئت في حاجة ، فاشفع لي إلى محمد .

قال علي رضي الله عنه : ويحك يا أبا سفيان ، فو الله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه .

ونظر أبو سفيان إلى الحسن بن علي بن أبي طالب وهو يدب بين يدي أمه فقال لها : يا ابنة محمد ، هل لك أن تأمري بنيك هذا فيجير بين الناس ، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟ .

قالت فاطمة الزهراء رضي الله عنها : والله ما بلغ بني ذاك أن يجير بين الناس ، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ .

لقد أُقفلت الأبواب في وجه أبي سفيان ، ومن حق المسلمين أن يقفلوها في وجهه لأنهم ذاقوا منه المُرّ والهوان في مكة ، أفيُرحّبون به

في المدينة وقد عز الإسلام وأهله ، وأصبح زمام المبادرة في أيديهم ؟

وعاد أبو سفيان يطلب العون من علي رضي الله عنه .

فقال له علي : والله ما أعلم شيئا يغني عنك شيئاً ، لكنك سيد بني كنانة ، فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك ، وما أظن ذلك مغنيا ، ولكني لا أجد لك غيره . . .

وأسرع أبو سفيان إلى المسجد ، وأعلن للمسلمين أنه أجار بين الناس ، ثم لوى عنان راحلته ، وجد السير نحو مكة مسرعاً خوفاً من أن يلحق أحد به ، فيقتله ، لأنه مهدور الدم عند المسلمين .

هل يُسلم أبو سفيان ؟

ما كادت رملة تسمع برحيل والدها السريع عن المدينة عائداً إلى مكة المكرمة ليخبر زعماء قريش ما رآه في المدينة من استعداد للمسلمين لدخول مكة ؛ حتى راحت تغرق في تفكير عميق وراحت تتمنى أن يكون والدها مسلما كبقية المسلمين .

نعم . . . هو أبو سفيان ، والمسلمون يعلمون من هو أبو سفيان .

لكن . . . ألم تلِن قلوب هي أقسى من قلب أبي سفيان وأشد جبروتاً ، فأصبحت تلهث بذكر الله !!!

ألم يكن عمر بن الخطاب حربا على المسلمين فانقلب إلى الفاروق الذي يفرق بين الحق والباطل في قوله وفعله ؟!! .

ألم يكن خالد بن الوليد شوكة في حلوق المسلمين قبل أُحُد فأصبح الآن جندياً من جنود الإسلام ، يتأهب ليدخل مكة قائداً ، وفاتحاً ؟ !! .

وكذا أخوها معاوية ألم يشرح الله صدره فيدخل الإسلام !!!

راحت رملة تقرأ هذه الآية الكريمة ﴿ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم ﴾ (١) .

توجهت إلى الله بالدعاء ، وطلبت منه أن يشرح قلب أبيها للإسلام.

وتقدم المسلمون نحو مكة المكرمة ، ونزلوا حولها ، وأشعلوا نيرانهم ، فبُهت المشركون ، وأُخرست الألسن التي كانت تسبّح بحمد آلهة الحجَر ، وتشتم المسلمين ورسول الله ﷺ .

وخرج أبو سفيان من مكة يستطلع الخبر الذي صار حديث الشارع في مكة (محمد ﷺ والمسلمون . . .) .

ورآه العباس بن عبد المطلب وعرفه فقال له : (ويحك يا أبا حنظلة ، هذا رسول الله في الناس ، واصباح قريش إذا دخل مكة عنوة !!! فأسلِم ثكلتك أمُّك وعشيرتك .

وشعر أبو سفيان بالخطر المُحدق به وبأهل مكة . وشعر أن الجاهلية الأولى تلفظ أنفاسها تحت سنابك خيول المسلمين المتعطشة لتحطيم تلك الأصنام ، وشعر بالضعف أمام تلك الجحافل المتوثبة .

قال مخاطباً العباس : فما الحيلة فداك أبي وأمي . . .

وهنا أردفه العباس خلفه على دابة وسار به في الجيش المنتشر كالجراد . . عشرة آلاف جندي ، أوقدوا عشرة آلاف نار .

ودبّ الرعب في نفوس جميع مشركي مكة . . . وفي نفس أبي

---

(١) ــ الآية ٧ من سورة الممتحنة .

سفيان خاصة الذي رأى اليوم مالم يره من قبل .

وجاء العباس يردف خلفه أبا سفيان ويقول : إني يا رســـول قــد أجرتُه .

هنا قال الرسول ﷺ للعباس : اذهب به يا عباس إلى رحلك ، فــإذا أصبحت فأتني به .

وذهب به العباس إلى رحله ، وراح أبو سفيان يفكر طوال ليلـــه ماذا سيلاقي جزاء عنَتِه وصُدوده وعدائه للإسلام والمسلمين .

إسلام أبي سفيان

وفي الصباح جاء العباس بأبي سفيان .

قال له رسول الله ﷺ : ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟ .

هنا شعر أبو سفيان بخطئه ، ولمس بيده حكمة الرســـول وعدلــه وحِلمه ، فقال : بأبي أنت وأمي ، ما أحلمك وأوصلك ، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره ، لقد أغنى شيئاً بعد !!!

وبادره النبي ﷺ بعبارة أخرى لاختبار عقيدته .

(ويحك يا أبا سفيان ؛ ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ؟ . . .

قال أبو سفيان :

بأبي أنت وأمي ، ماأحلمك وأكرمك وأوصَلك ، أما هذه ، فــو الله إن في النفس منها حتى الآن شيئاً . .

وتردد أبو سفيان في لفظ الشهادتين ، لكنه أسلم بعد ذلك عن يقين

وأعلنها بين الملأ : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله . . .

وأراد الرسول ﷺ أن يرضي كبرياء أبي سفيان ومحبته للفخر والخُيلاء ، فاستجاب لطلب العباس الذي طلب الأمان للناس الذين يدخلون دار أبي سفيان ، فقال رسول الله ﷺ : نعم . . . من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه عليه فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن . . .

وراح الناس يرددون في شوارع مكة : من دخل دار أبي سفيان فهو آمن . . .

وفرحت رملة بإسلام أبيها ، وشعرت أن أباها لم يعد ذلك العدو اللّدود لرسول الله ﷺ وللمسلمين ولكنه أسلم ، وحسُن إسلامه .

(وأحست أن قد أزيح عن كاهلها عبء باهظ ، ومن تلك اللحظة لم تقبل قط أن تتحداها عائشة أو تمارس معها ما اعتادت أن تمارسه من تحكم وزهو ومباهاة .) (١) .

وفاتها

حين شعرت أم حبيبة بدنُوّ أجلِها أرادت أن تلاقي الله بقلب سليم ، وأن تنسى ما كان بينها وبين عائشة من غيرة الضرائر والاعتداد بالذات ، فهذه بنت أبي سفيان ، وتلك بنت أبي سفيان ، وتلك بنت أبي بكر الصديق .

والمثل العربي يقول : كل فتاة بأبيها معجبة .

ولكن ... حين يشعر الإنسان بوداعه للحياة الدنيا ، ينســــى كــل شيء ولا يذكر إلاّ الإيمان وصفاء النفس ، وطلب التحلل من الأخطاء والعثرات .

دعت رملة ضرَّتها عائشة وقالت لها وهي في حالة الإحتضار :

قد كاد أن يكون بيننا ما يكون بين الضرائر ، فتُحلِّليني من ذلك ؟

وقالت لها أيضاً :

قد يكون بيننا ما يكون بين الضرائر ، فغفر الله لي ولك ما كــــان من ذلك ، فحلَّلتها عائشة من كل ذلك .

وفرحت رملة وقالت لها : سررْتِــني سرَّك الله .

ثم عادت فطلبت ذلك من أُم سلمة بنت زاد الركب .

وأسلمت روحها الطاهرة لله تعالى سنة أربع وأربعين من الهجرة.

قال عنها الذهبي : (هي من بنات عم الرســول ﷺ ، ليــس فــي أزواجه من هي أقرب نسباً إليه منها ، ولا في نسائه من هــي أكــثر صداقاً منها ، ولا من تزوج بها وهي نائية الدار أبعد منها) .

ودُفنت في مقبرة البقيع . رضي الله عنها وأرضاها (١) .

* * *

(١) ــ سيدات بيت النبوة (ص ٣٩٣) .